نحو أدب إسلامي عالمي

د. مصطفى يونس - عميد الكلية

لا يزال للكلمة تأثيرها الحي في نفوس الناس ، وإن حاول بعضهم — عن عمد أو غير عمد — أن يصرفوا الناس عنها إلى فنون أخرى ، يظنون أنها أقدر في التأثير على نفوسهم ، وأسرع في النفاذ إلى مشاعرهم وأحاسيسهم... فهم يصرفون الناس تارة إلى الموسيقا . يروجون لها ، ويدعون إليها ويتحدثون عنها كما يتحدث الحالمون عن أحلامهم الجميلة . ويخدع الكثير بهذا السراب ، فيندفعون إليه في قوة ، ويتجهون إليه في حماس ، يظنون فيه الري لقلبهم الصادي ، وعقلهم الظامىء ، وإحساسهم الولهان . فإذا جاءوه لم يجدوا شيئاً . وعندما يكتشفون أن الموسيقا — وإن كانت قادرة على التلاعب بالمشاعر ، والتأثير في الإحساس — عاجزة تمام العجز عن مخاطبة العقل ، وتعميق الفهم ، والتأثير في ذوي الألباب .

وقد ينصرف الناس إلى التصوير ، يجدون فيه القدرة على تسجيل المناظر ، ورصد المعالم ، وتدوين المرئيات . وقد يقعون تحت سيطرة الإعجاب بهذا المصور البارع الذي استطاع أن يخضع المرئيات لفنه ، وأن يطوعها لسياسته وأن يسلسها لقيادته ؛ وقد يزداد إعجابهم به ؛ لأنهم يرون في هذه الصور تعبيرا عن مشاعره الحية ؛ أو تنفيساً عن نفسه الحبيسة ، أو انطباعا عن اتجاهاته المختلفة . ولكن الصورة مع هذا كله ، ومهما كانت دقيقة فاتنة فهي عاجزة عن نقل المشاعر بدقة كاملة ، ووضوح شامل ، وأمانة صادقة . بل هي عاجزة تمام العجز عن نقل غير المرئيات في أدنى صورة ممكنة ، وبأعلى جهد ممكن وعلى أي وجه من الوجوه الصالحة .

وتستطيع أن تقول ذلك ، وأكثر من ذلك فى بقية الفنون الصامتة التى لا تتخذ الكلمة مادة لها ، ولا تجعل منها لحمتها وسداها — فالرسم والنحت والنقش والزخرفة . كل ذلك من فنون التعبير الأخرس لن يرتقى إلى درجة الكلمة ، لأنه صامت لا ينطق ، عى لا يفصح ، أبكم لا يبين .

ولست أدرى بذلك أن أبخس الفن حقه ، أو أنقصه قيمته ، فلن يختلف اثنان فى قيمة الفن ، وتأثيره فى نفوس الناس ... صامتا كان أم ناطقا ، وأخرس كان أم متكلما .

ولكن الذى أريد أن أقوله : إن الكلمة ستبقى — ما بقيت الحياة — أداة التفكير الرائع ، ومادة الأسلوب الراقى ، ووسيلة التعبير السليم ، وإن غيرها من الفنون الصامتة — مهما أوتى من القدرة على الأداء ، ومنح من التوفيق فى الإبداع ، ووهب من الأدوات والإمكانات ما يجعله قادرا على التعبير — لن يرتقى إلى درجة الكلمة فى كفاءتها العالية ، وطواعيتها النادرة ، وقدرتها الفائقة على نقل الفكرة الحية فى أمانة وإخلاص . واقرأ معى — إن شئت — قول الله تبارك وتعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور »(١)

أية أداة قادرة على نقل هذه الصورة الفريدة ؟ صورة أعمال الكفار ، فى هذا الوضوح الرائع ، وفى هذا البيان العجيب ...

إن الفن — أى فن — لن يستطيع الإحاطة بهذه الصورة ، وليس بقادر

---

(١) سورة النور الآية ٣٩ ، ٤٠

على استيعاب حدودها وأبعادها ، ونقلها فى هـذا الإطار المشرق الوضاح الذى يبهر النظر ، ويملك العقول والأسماع .

لقد انفردت الكلمة فى سياق النظم القرآنى بتأثير خاص ، هذه حقيقة لا مجال للمناقشة فيها ، ولكن الذى لا ينكر بعد ذلك أن الكلمة فى ذاتها — وبعيدة عن النسق القرآنى العظيم — لها تأثيرها الفعال الذى لا يرتقى إلى درجته فن من الفنون .

واقرأ بعد ذلك ما شئت من نثر ، واستمع إلى ما أردت من شعر فلن تزيدك القراءة والاستماع إلا تأكيداً لهذه الحقيقة ، وتثبيتا لكل جوانبها وأركانها .

وإذا كانت الكلمة هى المادة الأصيلة للأدب ، كان للأدب تأثيره الفعال فى نفوس الناس ، وأثره الواضح فى توجيه الشعوب ، وقيمته الكبيرة فى حياة الأمم والأفراد . هو يسمو بعاطفتها ، ويرقى بأفكارها ، ويهذب مشاعرها ، ويلطف مزاجها ، ويعدل سلوكها ، وينمى مواهبها ، ويعمق ثقافتها ، ويمدها بمعين لا ينضب من الفكر ، وزاد لا ينفد من اللغة وشعلة لا تخمد من المعرفة ، ورصيد لا ينتهى من الحقائق والمعلومات .

وهو — مع ذلك — سجل حياتها الصادق ، ولسان حالها الناطق ومرآة أيامها الصافية ، وكتاب تاريخها المعبر . لذا لم تعد دراسة الأدب فى كل أمة شرفا يزيد عن حاجتها ، وناقلة تتقرب بها إلى الحكام وذوى الجاه ، وتتزلف بها إلى أصحاب الثروة والمال ، حبا فى المنصب ، أو طلباً للغنى . وإنما أصبحت دراسة الأدب فى كل أمة ضرورة ملحة يراد بها اكتشاف الآثار الأدبية القديمة وتحليل الأجناس الأدبية الحديثة ، ودراسة المعالم البارزة فى كل أدب ، والخصائص المميزة لكل نوع ، والاتجاهات الواضحة فى كل لون والعوامل المؤثرة فى كل جنس . ثم هى بعد ذلك دراسة وتحليل لمظاهر البيئة التى نما

فيها الأدب ، وتسجيل الاتجاهات الثقافية التى أرضعته بلبانها، وغذته بغذائها، وتحليل لطبيعة هذا الشعب الذى تأثر بهذا الأدب أو أثر فيه ، وقبل هذا النوع من الأدب أو رفضـــه ، واستجاب له أو وقف منه موقف الجمود والعصيان .

إن هذه الدراسة الواعية المتأنية تقودنا إلى تحقيق الهدف الأسمى الذى تهفو إليه قلوب الملايين من طوائف المؤمنين فى أنحاء العالم الإسلامى كله وهو الوصول إلى أدب إسلامى عالمى .

إننا بحاجة شديدة إلى أدب إسلامى ، وحاجتنا أشد إلى أدب إسلامى عالمى تلتقى عليه مشاعر الملايين من أبناء العالم الإسلامى ، وتنبض به قلوبهم وأحاسيسهم ، وتمتزج فيه مشاربهم واتجاهاتهم ، وتتحد عليه آمالهم وأمانيهم ، وتتصهر فى بوتقته آلامهم ومصائبهم ، ويقرءون بين صفحاته تاريخهم وحوادثهم ، ويتعرفون بين سجلاته على أمجادهم ومفاخرهم ويتخذون منها وقودا لنيرانهم المشتعلة ، وزادا لأسفارهم الطويلة ، وعدة فى معاركهم القاسية ضد أعداء اليوم ، وخصوم المستقبل .

لقد آن الأوان لأن يكون لنا أدب إسلامى عالمى ، وأن تختفى تلك الدعوات المتعددة التى تهدف إلى تفتيت العالم الاسلامى تحت تأثير شعارات زائفة ، ولافتات براقة ، وعبارات خادعة فتارة يدعون إلى دراسة الأدب فى ظل القومية العربية ؛ وأخرى يدعون إلى دراسته فى ظل الشعوبيات الخاصة ؛ وثالثة يدعون إلى دراسته فى إطار قومى يرجع بنا إلى ما قبـــل ظهور الإسلام ، وهم فى هذه الدعوات كلها يمنحون بالدراسة إلى البعد بكل ما أوتوا من قوة عن تجميع أواصر الأدب ، وتوثيق عرى أجنـــاسه ، واندماج وحداته المختلفة تحت راية أدبية شاملة تضم أبناء العالم الإسلامى كله ، لتؤلف كيانه الممزق ، وتجمع شمله المفرق وتؤكد وحدته المنشودة .

إن العالم الإسلامى اليوم تتنازعه أهواء متشعبة ، وتتجاذبه قوى متعددة وتؤثر فيه تيارات كثيرة . وهو بحاجة — أكثر من أى وقت مضى — إلى تجميع قواه المبعثرة ، ليواجه هذه التيارات المعادية ، ويصد ذلك الزحف المناوئ ، ويقاوم تلك الحركات المدبرة التى تهدف إلى إفساد العقيدة وضياع اللغة ، وإثارة الفتن ، وتخريب العقول .

إن الحرب المسعورة التى يقودها المغرضون ضد اللغة العربية فى كل مكان ليست لأنها لغة العرب فحسب ، ولكن لأنها لغة الإسلام ، نزل بها كتابه الكريم ، وجاء بها رسوله العظيم ، وانتشرت بها دعوته السامية السمحة فى شتى بقاع الأرض .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : « والإسلام مع ذلك كله حقيقة كبرى من حقائق العروبة ، وعنصر أصيل من مقومات مجتمعها وأدبها : ذلك لأنه قد أخذ منها ، وأعطى لها ... أخذ منها لغتها ، وأعطاها قيمه ومثله ، نزل كتابه بلغتها ، وحفظ تراثه كله فيها ، بحيث أصبح من لوازم المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم أن يتعلموها ليعرفوا أصول دينهم ، وليقيموا بها صلواتهم وعباداتهم . ثم إن الإسلام من ناحية أخرى هو الذى وحد العرب ، ورفع ذكرهم ودفعهم إلى طريق المجد ، وحمل لغتهم إلى الآفاق ، وجمع المسلمين على الكتابة بحروفها ، لم يشذ على ذلك إلا الترك منذ ثورة الكماليين اللادينية والجمهوريات الجنوبية فى روسيا منذ الثورة البلشفية ، والأندونيسيون فى السنوات الأخيرة وهو الذى جمع بين الناطقين بها على قيمه ومثله فى إخوة زالت معها فوارق الجنس واللون ... (١)

---

(١) من كتاب الأدب العربى فى ظل القومية العربية ص ١٢

لقد فطن المغرضون إلى هذه الحقيقة الثابتة ، فقاموا يحملون معاولهم بغير هوادة ولا توان ، يريدون هدم اللغة العربيـــة ، وتقويض أركانها فارتفعت صيحات مغرضة فى كل مكان تدعو إلى أن تكون اللاتينية لغة الكتابة وأن تكون العامية لغة الأدب . يريدن ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

إن المؤتمر الذى عقد ببيروت تحت شعار التعداد الاحصائى (١) خرج إلى العالم بتوصيات جريئة لم يرد من ورائها إلا طمس معالم اللغة العربية ، والقضاء على أصالتها وخصائصها . فقد دعا فيما دعا إلى الاقتصار على الجملة الاسمية ، وقبول المفردات العامية فى اللغة المكتوبة . والاكتفاء فى جمع المذكر السالم بصيغة الياء والنون ، وتوحيد صيغة الأسمـــاء الخمسة فيقال « أبوه » فى الرفع والنصب والجر ، وجمع الكلمات والتراكيب العامية . إلى غير ذلك من التوصيات الجريئة التى أوهم العالم الاسلامى أنه يريد بها خيراً للإسلام والعربية ، ولم يكن يبغى من ورائها إلا سد الطريق على لغة القرآن أن تسمو وتسود ، وأن تتبوأ مكانها فى الصدارة بين لغات العـــالم الاسلامى كله .

وليست هذه الدعوة الجريئة التى دعا إليها مؤتمر بيروت جديدة على اللغة العربية الفصحى ، فقد دعا إليها من قبل كثير من أعداء الاسلام كان كان منهم الكاتب « ولهلم سبيتتا » حين كتب كتابه — قواعد العربيـة العامية فى مصر » باللغة الألمانية ، وقد تنبأ فى هذا الكتاب بموت اللغة العربية الفصحى ، وانتهائها إلى اللغة العامية : وقد حملت لواء هذه الدعوة فى مصر مجلة — المقتطف — التى دعت إلى كتابة العلوم بالعامية ، زاعمة أن الفصحى

---

(١) مؤتمر بيروت للتعداد الإحصائى المنعقد فى الفترة من ١٤ إلى ١٩٧٣/٦/١٦

لغة فئة خاصة ، وليست لسان الجميع ، فإذا أرادت الأمة أن تعطى المقولات العلمية لجماهيرها ، وليست لفئة من هذه الجماهير فحسب ، فينبغى ألا تتردد فى رفض العربية الفصحى ، وينبغى ألا تتردد كذلك تحت أى من العوامل فى احتضان العامية لغة تعبير وتفسير وتطوير .

وكان من أشد أعداء الاسلام هجوما الكاتب سلامة موسى فى الربع الثانى من القرن العشرين الميلادى . بل لقد كان أكثر جرأة ، وأقوى إقداما حين دعا إلى الخروج على اللغة العربية ، لأن لغتنا العربية كثيرة القواعد والشذوذات ، والكلمات المترادفة أو المشتبهة ؛ وهى تحتاج من الوقت لتعليمها نحو ثمانية أو عشرة أمثال الوقت الذى تحتاجه اللغة الإنجليزية ، فيجب أن تتجه نحو تيسيرها بالإقلال من القواعد والشذوذات ، بل ومن الكلمات ، بل لقد دعا إلى اتخاذ الخط اللاتينى بدلا من الخط العربى ، وعلل ذلك بأنه يحمل الأمة إلى الامام مئات السنين ، ويكسبها عقلية المتمدنين ، ويجعل دراسة العلوم سهلة ، ويدفعها خطوة واسعة نحو الاتحاد البشرى ، بل لقد شن حربا قاسية على الحرف العربى ، وأكد أن من أفدح عناصر الجذب الوراثى فى تاريخ المنطقة هو رفضنا لارتقاء لغة حضارية حية ، واستمساكنا بأحافير لغة الصحراء والناقة والحجاب والدم والجنون . (١)

ولقد كان سلامة موسى بهذا الهجوم المركز يحذو حذو « أمين شبل » الذى دعا إلى الهجرة الكاملة من الشكل العربى إلى الشكل اللاتينى ، زاعما أن اللغة العربية قد عجزت عن النهوض الحضارى بوظائفها الطبيعية ، وأصبح لزاما علينا طرحها ، واحتواء لغة أخرى أرقى وأقدر . فاللغة العربية ماضية فى طريقها إلى الموت كما ماتت من قبلها لغات كانت لها الخصائص والمكونات

---

(١) البلاغة العصرية واللغة العربية لسلامة موسى ص ١٨٥

نفسها كاليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية، ومحاولة البعث فى لغة ماتت أو هى فى طريقها إلى الموت ضرب من اللاجدوى التى تشغلنا عن أشياء ينبغى أن توفر كل جهودنا للعمل فى مجالها الحقيقى .

وهو يطمئننا إلى أن اللذة العقلية التى نحصلها من درس لغتنا لا تملأ بطن جائع واحد ، ويدعونا إلى أن نتابع ركضنا على طريق الأهم ، ولنعرف جيدا أن تراثنا الذى نحرص عليه موجود فى اللغات الأوربية الأرقى . بل وعلى مستوى أعلى ، فلا خوف من ضياع شىء إذا كان هناك ما يخاف عليه بالفعل ثم يعلل الكساد المادى والمعنوى الذى نعانى منه بتمسكنا بهذه اللغة فيقول : « إن الكساد المادى والمعنوى جميعاً منوط بأولئك الذين يجهدون أنفسهم فى دراسة اللغة العربية ، وأن الانفتاح والامتلاء جميعاً منوطان بأولئك الذين يعملون فى مجال اللغات الأوربية الحية ، ودعونا من طفولة اللهث وراء الوطنية ، فإن الوطنية الحقة قائمة فى المعانى لا فى الألفاظ ، أعنى فى صيانة حقوق الأفراد ، وأحكام العدل والتسوية ، والالتفات إلى الأمة ولغتها ، وعدم إعطاء خبز بنيها لغيرهم »(١)

ولقد خدع بهذه الدعوة فريق من الكتاب المسلمين من أمثال أحمد أمين ولطفى السيد ، وبهى الدين بركات ، وبرز من بينهم عبدالعزيز فهمى فدعا إلى العدول الكامل عن الحرف العربى إلى الحرف اللاتينى ، توخيا للسهولة المنشودة ، والإحكام الملائم لحركة الفكر الحديث ، والاستغناء عن عبثية الضبط بالشكل إلى صوابية الضبط بالحروف .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ارتفعت أصوات اليوم تدعو إلى

---

(١) التنكيت والتبكيت . العدد الخامس ١٩٨١ م

ما يسمى بالأدب الشعبي أو « الفولكلور »(١) مسخرة ذلك اللون فى دعم بعض المذاهب والاتجاهات . مستغلة جهل الناس بأهدافه الحقيقية . فقد ظن الكثيرون أن المقصود بهذا الفن هو الإشادة بالألوان الشاذة حينا ، والبذيئة حيناً آخر ، والمتخلفة تارة أخرى ، فاتجه همهم إلى الدفاع عنهـــا وتجيدها والمحافظة عليها وتجميدها ، بزعم أنهـا هى طابعنا القومى المميز الذى لا ينفك عنها ولا تنفك عنه ، وكثر خلط الخالطين، وتهريج المهرجين باسم الشعبية والواقعية ، كأن مهمة الأديب أو الفنان هى تسجيل الواقع وعرضه على الأنظار والأسماع فى إسفافه وابتذاله، وبكل تفاصيله وعوراته وكأن الأديب أو الفنان ليس مطالباً بأن يصفى هذا الواقع ويحمله ويرتفع به (٢)

إن هذه الحملات الضارية التى يشنها أعداء المسلمين على اللغة العربية بين الحين والحين ، وكلما أتيحت لهم الفرصة تدعونا أن نتجه مسرعين وفى أقرب

---

(١) الفولكلور Folklore . إصطلاح ظهر فى أوربا للمرة الأولى فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ليدل على الدراسات التى تتصل بعادات الشعوب وتقاليدهم وطقوسهم وأساطيرهم ومعتقداتهم وفنونهم وما يجرى على ألسنتهم من أغان أو أمثال أو شتائم أو أهازيج .

يدرس ذلك كله دراسة تاريخية من خلال الآثار والعادات ، وتستقصى مظاهره الباقية فى الجماعات البشرية المعاصرة . ولقد انصرفت هذه الدراسة فى أكثر الأحيان إلى المجتمعات المتخلفة ، وإلى المستعمرات بقصد التعمق فى تحليل نفوس أصحابها ، وإدراك دوافعهـــا ونوازعها ، وفهم ما ينظم عواطفها وتفكيرها من منطق بغية الوصول إلى أمثل الطرق ، وأحذق الخطط ، للتمكن منهم ، واستغلالهم ، واستدامة عبوديتهم .

(٢) الأدب العربى فى ظل القومية العربية للدكتور محمد محمد حسين ٣٤

وقت ممكن نحو أدب إسلامى عالمى لنصون هذه اللغة ، وندعم كيانها ونؤكد أصالتها وقوتها .

ذلك أمر ليس بالسهل اليسير ، وهو فى الوقت نفسه ليس بالمستحيل العسير . لكنه أمر ممكن إذا ما هيئت له النيات الخالصة ، والجهود الموفقة والهيئات المتخصصة ، ووضعت له الاهداف الواضحة ، والمناهج الكافية ، والطرق السليمة التى تؤدى إلى تطبيق هذه المناهج وتحقيق تلك الأهداف .

إن ذلك يتطلب تصافر الجهود المؤمنة على مستوى العالم الإسلامى كله ، لتهيئة الأرض الخصبة ، وإيجاد المناخ الملائم . وتوفير الإمكانات اللازمة لغرس بذور اللغة العربية فى هذه الأجيال الناشئة من أبناء المسلمين فى شتى بقاع الارض ، ثم القيام على هذه البذور التى غرست بالرعاية والرى والوقاية والعلاج حتى تشب وترعرع وتخرج أطيب الجنى وأحسن الثمرات .

لقد أثبتت التجارب العديدة التى خاضتها اللغة العربية ، خلال مسيرتها الطويلة ، وخاضها معها الأدب الإسلامى جنباً إلى جنب أن ذلك أمر ممكن الحصول ، وأن تحقيقه مرتبط بإتاحة الفرصة للغة العربية أن تأخذ مكانتها بين لغات العالم . إن لم تتح الفرصة لها كى تسيطر أو تسود .

لقد دخلت اللغة العربية إلى بلاد فارس وإلى بلاد الروم ، فوجدت آذانا صاغية وقلوبا واعية . واستعداداً طيباً لتذوقها وفهمها . واستيعابها ومعرفتها والغوص إلى أعماقها وغورها .. والتحدث بها لغة والإنشاء بها كتابة وخطابة والتغنى بألفاظها شعراً ونثراً .

بل لقد انطلق من هذه البلاد علماء متخصصون يدونون فى اللغة العربية وآدابها موسوعات عديدة . تظل شاهدة بما وصل إليه هؤلاء العلماء من قدرة على التحكم فى ألفاظ اللغة العربية . وامتلاك لنواصى البلاغة العربية السليمة ،

وهى فى الوقت ذاته دليل قائم على طواعية اللغة العربية وقدرتها على الوفاء بمتطلبات العصر الذى تعيش فيه . يقول جورجى زيدان :

« ومما يحسن إيراده لبيان امتياز أصحاب التمدن الإسلامى على من سواهم من الأمم الفاتحة من هذا القبيل أن القوط أو قبائل الجرمان سطوا على مملكة الروم من الشمال ، كما سطا عليها العرب من الجنوب، وكلاهما أهل بادية وحرب. امتلك القوط إيطاليا فى القرن الخامس فتركوا أهلها الروم على ما كانوا عليه من آدابهم وعلومهم ، وظلوا على بداوتهم وحبهم الحرب ، واستخدموا الوطنيين فى تدبير حكومتهم ... كما فعل العرب فى أوائل دولتهم . لكن القوط لما تحضروا حملوا علماء الرومان على التأليف فألفوا لهم الكتب باللاتينية لا بالقوطية . فذهبت هذه اللغة وبقيت لغة الروم بما صارت إليه من الفروع .

أما العرب فإنهم حالما استتبت لهم السيادة جعلوا الدواوين فى العربية ، وحملوا رعاياهم على مكاتبتهم بالعربية . ولما أرادوا نشر العلم كلفوا رعاياهم نقل تلك العلوم إلى العربية . فذهبت لغات الأمم التى كانت تحت سلطانهم ، وبقيت العربية »(١)

والتجربة الفريدة التى خاضتها اللغة العربية فى بلاد الأندلس دليل سيظل قائماً على بساطة هذه اللغة وسهولتها ، وقدرتها الفائقة على تخطى الحواجز ، وإزالة السدود التى تقف فى طريق ذيوعها وانتشارها .

يقول مؤرخو الأدب : لقد ظهرت فى الأندلس حضارة جديدة هى مزيج من الشرق والغرب . واتجه الأسبان إلى ثقافة العرب حين وجدوا

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٢/٢١

فيها بغيتهم ، فاعتنقوا دينهم ، وتكلموا لغتهم ، وتعلموا أدبهم ، وهجروا اللاتينية وآدابها حين رجدوها جامدة متخلفة ، حتى ارتفعت أصوات القسس بالشكوى من انصراف الأدباء عنها ، وإقبالهم على اللغة العربية وآدابها ، وإن كان القسيسون أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف أمام تيار اللغة العربية الجارف فجرفهم جرفا حتى اضطرهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية ، وهذه شهادة كاهن قرطبة أكبر دليل على ذلك . يقول كاهن قرطبة : إنا نحب نقرأ الشعر والقصص ، وندرس الدين والفلسفة فى اللغة العربية ، فنتعلم لغة عذبة الألفاظ بليغة الأداء ، جميلة الإنشاء ، ولاتكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية ، وشبابنا الأذكياء جميعاً لايعرفون غير لغة العـــرب وآدابهم ، وكلما قرءوا كتبها ، ودرسوا أدبها أعجبوا بها ، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه ، وقالوا إن الفائدة منه لاتساوى التعب فى قراءته . وهكذا نسى المسيحيون لغتهم ، وجهلوا كتابتها وبلاغتها ، وحذقوا اللسان العربى حتى ليكتبونه نثرا ونظما بأسلوب أنيق ، وتصوير دقيق ، يفوقون فيه العرب أحيانا (١)

وتجارب اليوم لاتقل عن تجارب الأمس تأكيداً لحقيقة ثابتة : هى أن المسلمين فى كل مكان يتوقون إلى اللغة العربية ، ويقبلون على تعلمها وفهمها ، ويتذوقون آدابها وفنونها ، فقد حققت التجربة الرائدة التى قامت بها إذاعة جمهورية مصر العربية نجاحا كبيراً فى مجالى تعليم اللغة العربية لغير العرب عن طريق المذياع ، ويكفى تقديراً لنجاح هذا المشروع أن الاذاعة لم تستطع الوفاء بتحقيق رغبات كل الدارسين فى شتى بقاع الأرض ، ولم يكن فى وسعها أن تقدم الكتاب الدراسى لكل راغب فى التعليم ، حتى وقف ممثل الإذاعة المصرية فى مؤتمر الرياض الذى انعقد أخيراً لدراسة أحدث الوسائل لتعليم

---

(١) تاريخ العرب فى أسبانيا لدوزى جـ٢ ص ١٠٢

اللغة العربية لغير العرب (١) وقف يناشد الهيئات القادرة أن ترتبط مع الإذاعة المصرية خطوة واسعة فى سبيل تعليم اللغة العربية فأصبح الغرب كله يتبع طريق المذياع لأنها وسيلة ناجحة وسريعة فى تحقيق الهدف المنشود.

وفى جامعة « تكساس » بأمريكا قامت الدكتورة « فكتورين » الأستاذ المساعد بتجربة رائعة لتعليم الأطفال الأجانب اللغة العربية باعتبارها لغة أجنبية لهم عن طريق العقل الصناعى . وقد أثمرت التجربة نجاحا باهرا ، فقد أنجز الدارسون ما طلب منهم فى قدرة فائقة ومهارة نادرة ، وفى الزمن المقرر حدد لهم دون تراخ أو قصور .

وكانت لى فى الأعوام السابقة التجربة متواضعة مع طلابى غير العرب فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، فقد طلبت منهم بحوثا تشمل أبواب المنهج الدراسى فى الأدب العربى ، ووكلت إليهم القيام بأداء محاضرات فى هذا المنهج لإخوانهم الطلاب العرب وغير العرب ، وكنت أقصد بذلك إلى سبر غورهم ، واكتشاف مدى استعدادهم لتذوق الأدب العربى وقدرتهم على الأداء باللغة العربية الفصحى ، وجلست أسجل ، وجاءت النتيجة رائعة باهرة ، فقد كتب الطلاب غير العرب بلغة عربية رصينة ، وحاضروا بأسلوب عربى مبين ، وصمدوا للمناقشات الجادة التى أثارها زملاؤهم ، وردوا على الملحوظات العديدة التى أبداها إخوانهم . كل ذلك فى ثقة وثبات تشهد لهم بالبراعة والفهم والذكاء . وتقدم دليلا واضحا على أن اللغة العربية ليست عسيرة الفهم ، ولا متعثرة الأداء . وإذن فى وسع اللغة العربية أن تحتل مكانها بين لغات العالم ، إذا ما منحها أبناؤها مزيدا من الثقة ، ولم يضنوا عليها بمزيد الجهد ، وكثير من الوقت ، وعديد من التضحيات ..

---

(١) عقد المؤتمر بالرياض فى أبريل سنة ١٩٨١م.

لقد فتح القرآن الكريم آفاقاً جديدة فى حياة الناس ؛ فأنت تستمع إليه مرتلا فى كل إذاعة ؛ ويطالعك به قراء من كل جنس ؛ وحفاظ من كل لون ومرتلون يتحدثون بكل لغة فى شتى بقاع الأرض . تلك ظاهرة طيبة تبشر بالخير . وتوحى بالأمل ؛ ولكنها تضاعف من مسئولياتنا نحو العمل الجاد المثمر لتحقيق أدب إسلامى عالمى .

إن العالم الإسلامى اليوم يشتهى أن يستمع إلى شاعر كأبى محجن الثقفى وقد عز عليه أن يرى حرب القادسية تشتعل بين المسلمين والفرس ، وأن يحرم شرف القتال بين صفوفها ، لوجوده فى السجن تنفيذاً لأمر أمير المؤمنين عمر بعقوبته على شرب الخمر ، فيطلقها الشاعر من منفاه زفرات حرّى متصاعدة ، راغبا فى الخلاص ، متطلعا إلى الجهاد ، فيقول : (١)

كفى حزنا أن تلتقى الخيل بالقنا ... وأترك مشدودا علىّ وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وغلقت ... مصارع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة ... فقد تركونى واحدا لا أخا ليا
وقد شف نفسى أننى كل شارق ... أعالج كبلا مصمتا قد برانيا
فلله درى يوم أترك موثقا ... وتذهل عنى أسرتى ورحاليا
حبست عن الحرب العوان وقد بدت ... وإعمال غيرى يوم ذاك العواليا
ولله عهد لا أخيس بعهده ... لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

ألست تحس آثار الإسلام فى نفس أبى محجن . وقد تحول إلى إنسان يقدم نفسه فداء للدعوة . وقد عز عليه تشب الحرب ، وتدور المعركة ويقف مكتوف اليدين ، موثوق الأعضاء فى سجنه ، لا يمكن من الحرب ، ولا يسمح له بالقتال . ثم ألا ترى أثر الإسلام بارزا فى ذلك العهد الذى قطعه على نفسه

---

(١) الإصابة جـ ٣ ص ١١٥ .

ليهجرن الحانات إذا ماقدر له أن يخرج من سجنه . وفى ذلك إذعان لتلك القوة الخفية التى ملكت عليه إرادته وقوته ، واستولت على عقله وفؤاده .

إن العالم الإسلامى يشتهى أن يستمع إلى هذا الشاعر كما يشتهى أن يستمع إلى الشاعر أحمد محرم وهو يؤكد أنه لاخلاص لهذه الأمة إلا رجوعها إلى ربها وتمسكها بدينها ، وتحصينها بمبادئها فيقول (١) :

هل الدين إلا معقل نحتمى به ... إذا دلف الصادى إلينا فأسرعا
هو الدين إن يذهب فلا عز بعده ... وإن جد ساعينا على إثر من سعى
ولا دين حتى ينزعوا ضلالهم ... ويصبح منهم موطن الغى بلقعا
وحتى يصونوا للكتاب زمامه ... وحتى يكونوا ساجدين وركعا
هنالك يقوى منهم ماتضعضعا ... ويثبت من بنيانهم ماتزعزعا

بل إن العالم الإسلامى ليسعده أن يستمع إلى صوت شوقى وهو يديع أمجاد الإسلام ، ويدافع عن قضاياه العديدة ، ويعلن عن مبادئه السامية فيقول : (٢)

والدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى والحقوق قضاء
والحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء
إن الشجاعة فى الرجال غلاظة ... مالم تزنها رأفة وسخاء
والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا ... فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوى تجبرا ... وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غزاة للرسول كريمة ... فيها رضى للحق أو إعلاء
كانت لجند الله فيها شدة ... فى إثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها ... فعلى الجهالة والضلال عفاء
دعموا على الحرب والسلام وطالما ... حقنت دماء فى الزمان دماء

---

(١) ديوان أحمد محرم ص ١٤٥ (٢) الشوقيات جـ ١ ص ١٢٢

بل إن العالم الإسلامى اليوم بحاجة إلى تلك الصرخة القومية التى أطلقها الكاشف ليوقظ بها مشاعر المسلمين ، ويعيدهم إلى التدبر فى أمور دينهم ، ويردهم إلى التمسك بمبادئه لتسمو أمتهم ، وهو يعلن أن الغرب ماتقدم إلا حين اتبع ماجاء به الإسلام من أخلاق سامية . وما أجدر أبناء المسلمين أن يحذوا حذو الغرب فى هذا الاتجاه . فهم أولى بذلك منهم . يقول الكاشف(١) .

بنى الشرق أدعوكم إلى خير منهج ... يعيد إليكم نضرة العيش ثانياً
فجاروا بنى الغرب الذين تشبهوا ... بأجدادكم حتى تنالوا المعاليا
وأنتم بتقليد الجدود أحق من ... عدا سلبوكم مظهرا كان زاهيا
أسركم أن المحارم تستبى ... ولم تلق فيكم عن حماها محاميا ؟
وأعجبكم أن الطرائق تعتفى ... ولم نر منكم يابنى الشرق واقيا
وإن لكم سيف من الدين ماضيا ... يفل إذا جردتموه المواضيا
فأحيوا به نهج النبى وجددوا ... مقاما لدين الله أصبح باليا
وردوه حتى تستعيدوا شبابه ... نضيرا وإلا عاش ظمآن ذاويا
كفاه اكتئابا مامضى من سكوتكم ... وغفلتكم عن أمره وكفانيا
فأرضوه عنكم بانتهاج طريقه ... فما أجل الدنيا إذا بات راضياً
هنالك نحيا فى نعيم ونضرة ... ونأمن عدوان العدا والليالياً

نعم . إن العالم الإسلامى اليوم بحاجة إلى أدب إسلامى عالمى يوقظ مشاعره النائمة ، ويحيى عزائمه الميتة ، ويبعث فيه الأمل والشباب ليعيد أمجاده السابقة ، وينشر لواءه المنطوى ، ويفتح آفاقا جديدة للعقيدة الخالصة أن تأخذ مكانها بين الضمائر والقلوب .

وليس لسائل بعد أن يقول : وكيف السبيل ؟ . السبيل أن نقف إلى جانب الدول التى تخوض اليوم معارك التعريب ، نقدم لها مايلزم من خبرة ، ونمدها

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى أدبنا المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ص ١٤٨

بما تحتاج من جهود ، ونوفر لها ما تطلب من قدرات والسبيل أن نقف إلى جانب الهيئات التى أخذت على عاتقها أن تبشر بالإسلام فى كل مكان ، فنعينها على أداء رسالتها ، ونشترك معها فى القيام بمهمتها ، ونذلل لها الصعاب التى تعترض طريقها بكل ما أوتينا من قوة ، وبكل ما نملك من طاقة ، والسبيل أن نقف إلى جانب المؤسسات والإذاعات التى تقوم بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، فنشد من أزرها ، ونقوى من عزمها ، ونقدم لها من الجهد والخبرة والمال ما يضمن لها الاستمرار فى أداء عملها ، ويدفعها إلى مزيد من الإجادة ، ومزيد من الاتقان ، ومزيد من الانتشار .

ثم السبيل إلى ذلك أن يلتقى الشعراء والكتاب على مستوى العالم الإسلامى فى مؤتمر عام تحت رعاية هيئة مسئولة ، يحددون فيه أهدافهم ، ويضعون فيه خططهم ، وينطلقون منه إلى مجالاتهم المختلفة فى أنحاء العالم الإسلامى ، ليحققوا أهدافاً واحدا ، وينفذوا خطة مشتركة ، ويعملوا جميعاً فى سبيل هذا الأمـــل .

عند ذلك يمكن أن نضع أرجلنا على أول خطوة فى الطريق لنتجه جميعاً نحو أدب إسلامى عالمى .